

كل يوم لنا حَتَابٌ جديد

للككتور زكي مبارك

قرأت كلمة الأخ الكريم لأستاذ دريني خشبة فرأيت
بصرح بأني خاصمت الرسالة وخصصت الأستاذ الزيات ، لأنهما
أطلقا المنان لحرية النشر وحرية الفكر وحرية المجادلة ، فهل
يكون معنى هذا أنني أحارب تلك الحريات ، وأني أبتعض من
يعرضون لنقد ما يصدر عن قدي ؟

لا شيء من ذلك ، فهذا الأخ يعرف مبالغ حبي لحرية الرأي ،
وإنما أراد أن يلفت فيدعوني إلى الصلح بذلك الأسلوب الرفيق ،
ولعله لو انتظر أياماً لرأى كيف يسمي الأستاذ الزيات إلى أو
أسمى إليه ، فبيننا أواصر أخوة لا يزلها خصام ولا قتال ،
ونحن أعقل من أن نختصم بصوت لا ينفج معها صلح ، فالعقل
الذي يوحى بمجاملة الأعداء رغبة في تحويلهم إلى أصدقاء ،
لا يقبل أبداً محاربة الأصدقاء ليحولهم إلى أعداء

والدنيا لا تسمح في كل يوم بمخلق صداقة كالصداقة التي
بينى وبين الأستاذ الزيات ، ولعلها لن تسمح أبداً ، فقد تبدلت
الدنيا من حال إلى أحوال ، حتى كادت تصير الصداقة الصحيحة
من ضروب المحال

وما بينى وبين الأستاذ الزيات من الوداد قد ترمض لكاره
كثيرة ، فقد كان لنا في كل يوم عتابٌ جديد ، وكان حين
ينصب مني يقول : كيف أستطيع أن أصلح ما بينك وبين الناس
ولا أستطيع أن أصلح ما بينك وبينى ؟
والخصومة الأخيرة لم تكن مما يجب ، لأنها وقعت بعد
صلح شهده أبنائنا قبل أسبوعين اثنين ، ولهذا قال وهو يمانب :
ما الذي سيقول أبتاؤك ؟

وكان الجواب حاضراً ، ولكنني لم أجب ، ولو أنني أجبت
لقلت : إن أبنائنا تعجبوا من أن يسمح الأستاذ الزيات بنشر
كلام يزعم كاتبه أنني أحارب القرآن ، وأحارب الدين ، مع أنهم
يرون في كل يوم أنني أدعومهم إلى المحافظة على الصلوات
وكنت أستطيع أن أقول للأستاذ الزيات : وما الذي تقبل

أنت إن عاتبك ضميرك وأنت تعرف أنني أدبت للإسلام خدمات
لن يؤدي بعضها من يتهمونني في إسلامي ؟

ولكنني لم أقل شيئاً ، وتركت الأستاذ الزيات ينشر سلسلة
من المقالات لرجل حاقده شوى قلبه الحقد عشرين عاماً أو تزيد ،
وقد قدمت للأستاذ الزيات ردّين فطواهما عن عمد ، لأنه رأى
أحاسبه ولا أحاسب ذلك الحقد ، فكيف يرغب الأستاذ الزيات
في أن ينجو من حسابي ، وهو حسابٌ يحمل أنفاس العتاب ؟
وما الذي يقع إن طوى الأستاذ الزيات هذا الرد أيضاً
ليصورني أمام قرائه بصورة من يأبى الصلح ؟

لن يقع شيء ، فقد كتبت عشرين رداً ، ثم مزقتها جميعاً ،
رعايةً للعودة العالية التي تفيانا ظلالها عدداً من السنين ...
وللأستاذ الزيات أن ينسئ أنني عرفته أو عرفني ، فأنا نقمى
تناسيتُ فنسيت ، ولم يعد بيني وبين الرسالة من صلة غير متابعة
ما يُنشر فيها من الأبحاث الجياد

كان رأيي أن معاونة الرسالة فريضة على كل مصري ،
لأنها صوت مصر في الشرق ، ولم يقع ما يفتير هذا الرأي ،
فالرسالة باقية بإذن الله ، وسأعاونها ما حييت ، وسأندكر في كل
وقت أنها كانت لقلبي أجمل ميدان ، وأرحب ميدان

والله عز شأنه هو الذي أراد أن يقع ما وقع ، فإنا كان يخطر
في بالي أن لقراء الرسالة نحو كتابها عواطف تصل إلى حد
العشق ، ولا كنت أتوهم أنني سأناق في كل يوم خطابات من
قراي في مصر والشام والعراق ، خطابات كلها أسف على ما قيل
من أنني خاصمت مجلة الرسالة وخصصت الأستاذ الزيات

وأما لا أستكثر أن يزعج قراي افراقي ، فإنا كذبت عليهم
في حرف ، ولا صارحتهم بغير الحق ، ولا تخوفت من تمردهم على
الصراحة ، ولا دعوتهم إلى مصانعة الباطل في سبيل النافع الفانية
والأستاذ الزيات يعرف كيف جنتي قلبي على حياتي ،
وكيف خلق لي ألوفاً من الأعداء ، وكيف قضى بأن أعيش
في وطني عيش الغريب

وهل ينسى حزنه لحزني يوم نجح بعض الحاقدين في محاربة
الحوار الذي أدركته على لسان آدم واسان حواء ؟

وهل ينسى العلقم الذي اجترهنا معاً ونحن نمانى ثورة

غفلة ، ولا فوق جهلهم جهل ، وهم حطب جهنم ، ولكنهم لا يشعرون

الإسلام دين العقل ، لا دين الجهل ، ونحن بفضل الله ومشيبته ورعايته أنصار هذا الدين ، ولن يتلقى المسلمون مبادئه إلا عن أعلامنا ، فليرحم نفسه فلان الفلاني ، وليطمئن إلى أن متاعبه في محاربتى لن تنال منى إلا بقدر ما تنال النمال في نصف الجبال

لقد سمحت بحجة الرسالة لفلان الفلاني أن يشطح وينطح في نقد كتاب النثر الفنى ، فماذا صنع ؟

انهبرت أنفاسه وانقطعت بمد خمس مقالات هي من الهزال بمكان !

هل كان الأستاذ الزيات ينتظر هذه العاقبة لذلك الفلان ؟ اسمع كلاي يا صديقي الزيات ، اسمع كلاي ثم اسمع ، فما كنت نبياً حتى تزعم القدرة على بعث الأموات ، ولا كنت سينمائياً يُنطق الصور المرومات من وراء حجاب

قد أتق بقدرتك على المستحيل يا صديقي الزيات ، ولكنى أستبمد كل الاستبمد أن تقدر على خلق ذلك الفلان

ولك أن تجرب حظك إن أردت ، لك أن تحاول مغاضبة الله فتجنى من أراد الله أن يموتوا ، لأنهم جاهلون ، وإن زعموا أنهم علماء وأحياء

جرب حظك يا صديقي ، فنحن في أزمان التجاريب ، وقد تصل إلى أشياء لا تخطر في البال

وأسارع فأقرر أن نجاحك في تجاريبك لن يصل إلى الزعم بأن إيمان الضفادع أشرف من إلحاد الرجال

لقد فرح فلان الفلاني حين رأى أعترف بصحة ما رواه عن كتاب النثر الفنى ، وأنا أرجو الأستاذ الزيات أن يخبرني أنه رأى كتاباً في الأدب العربى أعظم وأعمق من كتاب النثر الفنى

إن الأستاذ الزيات يؤرخ الأدب ، فليحدثنى عن كتاب هو أعظم من كتابى ، إن كان يستطيع ، وإن يستطيع

إن ذلك الناقد الحاقد لكتاب النثر الفنى وقف عند مسألة شائكة ، وهى المسألة الخاصة بأرائى في إنحياز القرآن ، ولم يقف

الجهال على القلم البليغ ؟

مضى ما مضى ، وأصبح ودادى للأستاذ الزيات طيفاً من أطراف التاريخ ؛ فلم يبق إلا أن أنص على ظاهرة خطيرة ، ظاهرة مؤذية تزلزل المجتمع الإسلامى من حين إلى حين ، وهى تتمثل فى غرام الجاهلين بالنص من عقائد المثقفين ، ليقولوا إنهم وحدهم أهل الإيمان ، ويعزوا أنفسهم عن جهلهم البغيض ، وتلك تعزية كانت تنفع فى الأيام الخوالى ، ولكنها اليوم أضيع من الضياع كنا نجد فى عبارات المؤرخين عند التمرض لأحد المفكرين أمثال العبارة الآتية :

« وكان غفر الله له يُتَّهَم بالنظر فى العلوم العقلية »

فهل تبقى هذه العبارة وأمثالها على ألسنة بعض الخلق فى هذا المهد ؟

وأنا أوجه الأسئلة الآتية إلى من يدعون التفرد بالنيرة على الدين الحنيف :

إذا عجز الإسلام عن غزو قلوب المثقفين فإلى من يُصوّب سهامه الروحية ؟

وإذا صح أن الإيمان الحق هو إيمان المجازر فما هو مصير أهل الشباب والماوية ؟

وإذا كان الجهل بشيراً بصحة العقيدة ، فما الموجب لإنشاء المعاهد العالية ؟

أريدون الحق ؟

الحق أنى لن أيا من أن يظفر المثقفون بمكانتهم فى المجتمع الإسلامى ، فقد زعنا راية الإسلام من أبذى الجهلة ، وصار إلى أعلامنا المرجع فى شرح أصول الدين ، والمسلمون كلهم يشهدون بأن أعلامنا هى التى تبصرهم بجمال الشريعة الإسلامية ، وجمال لغة العربية ، والله يؤتى الحكمة من يشاء

أعلامنا هى التى تشرح دقائق الأدب العربى ، وسرائر الدين الإسلامى ، ولئن ترك هذه المبادئ للجاهلين ، ولن نرحم أعمارهم التى تضيع فى اتهامنا ظلماً بالزيف والإلحاد

وإذا ألدنا فمن يؤمن ؟

أيو من الجاهلون وقد حججهم الجهل عن الإيمان ؟ على أنفسهم فليبيكوا ، إن كانوا صادقين ، فما فوق قفلتهم